الفصل الثالث
النشاط الاجتماعى والاقتصادى للشيعة في الهند

أولاً النشاط الاجتماعى للشيعة فى الهند من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى إلى القرن السادس الهجري الثانى عشر الميلادي:

قدمت الهند منذ وقت مبكر جداً إلى الشيعة مكاناً للجوء من مطاردة الخلفاء السنيين، وذلك فى إطار الاستيطان الإسلامى السلمى فى الهند، وهناك أسطورة متداولة بين الشيعة فى الهند أن الحسين الشهيد بكربلاء رضى الله عنه كان قد قدم عرضاً لأعدائه الأمويين أن ينفى نفسه إلى الهند . وإن كان ذلك غير صحيح تاريخياً إلا إنه يعكس أهمية الهند كملجأ نائى للشيعة المضطهدة.(1)

اتجهت الشيعة المطاردة من قبل الخلافة إلى السند والهند ليجدوا مأوى ونصرة فى تلك البلاد، ويعملوا على نشر مذهبهم بها. وقد ساعدهم على ذلك ما ارتبطت به الشيعة من علاقات طيبة مع أهل السند منذ أن تزوج على بن أبى طالب وبعض أولاده وأحفاده من سنديات، ولذلك فقد وجدت الشيعة مأوى ونصرة لها فى السند ونجحوا فى نشر المذهب الشيعى فى تلك البلاد، حتى إذا جاء عصر ضعف الخلافة العباسية نجح الشيعة الإسماعيلية فى إقامة دويلات لهم فى الملتان والمنصورة.(2)

ومن الأمثلة على زواج البيت العلوى من سنديات، ما قيل من أن أم محمد الأكبر بن على بن أبى طالب كانت أمه سندية من سبى اليمامة، فصارت إلى على بن أبى طالب، فقد كانت أمه لبنى حنيفة ولم تكن منهم(3)، وكذلك يقال أن أم على بن الحسين الأصغر، المشهور

(1) David Pinault, The Shiites, Ritual and Popular Piety in a Muslim Community, ST, Martin s press, New York, 1993, p.59.

(2) رجب عبد الحليم: انتشار الإسلام...، ص 158.

(3) أطهر المباركبورى: رجال السند والهند إلى القرن السابع، ص108.

"بزين العابدين" كانت سندية يقال لها " غزالة" أو "سلافة"[1]، وقد قيل كذلك أن أم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب كانت أمه سندية، وكانت تسمى "حيدان"[2].

وتوجه الشيعة إلى الهند منذ العصر الأموى هرباً من الاضطهادات التى لحقت بهم، واستقر كثير منهم هناك، ومنهم "نزائت كثوابت" وهم قوم من قريش يرجح أنهم من آل البيت هربوا من اضطهاد الحجاج إلى الهند حيث استقروا فى "المهايم" وهى بندر فى كوكن من نواحى الدكن، وقد برز منهم علماء أجلاء فى الهند[3].

وعندما تعرض أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق للاضطهادات السياسية التى لحقت بالعلويين، تركوا المدينة، وذهب محمد وهو الابن الأكبر لإسماعيل إلى إقليم دَمَاوَنُد بالقرب من الرى واختفى هناك، واختبأ أبناؤه فى خراسان، وبعد ذلك ذهبوا إلى قَنُدهَار ثم إلى الهند ومازالوا هناك إلى اليوم، وقد كان أبناء إسماعيل يبثون فى البلاد التى اختفوا بها الدعاة إلى العالم الإسلامى ليدعوا الناس إلى مذهبهم[4].

ومن أمثلة الشيعة الذين اتجهوا إلى السند "عبد الله الأشتر بن محمد ذو النفس الزكية"، وقد سبق الحديث عن محاولته الثورة هناك على الخلافة العباسية وإحباط محاولته وقتله بالسند، وقد كان قد تزوج من جارية سندية، وأولدها صبى يقال له محمد، فبعث الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور الغلام إلى المدينة، وكتب إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه، وأمره أن يلحقه بأهله، وهو الذى يقال له أبو الحسن بن الأشتر[5].

ومن عائلات الشيعة التى توجهت إلى السند والهند وسكنت بها "البخارية" وقد ورد ذكرهم فى مجالس الدعوة، وذكر أنهم "طائفة كبيرة من السادات أصحاب السعادات يسكنون

---

(1) أطهر المباركبورى: المرجع نفسه، ص132.

(2) أطهر المباركبورى: رجال السند والهند إلى القرن السابع،ص101.

(3) أغابزرك: الذريعة ، ج3، ص182.

(4) إيفانوف: الإسماعيلية، دائرة المعارف الإسلامية، مج3، ص377.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، مج5، ج10، ص108. أحمد بن على بن الحسين الداودى الحسنى (ت 828هـ) : عمدة الطالب فى أنساب أبى طالب، بمباى، 1318هـ، ص82،83.

بلاد الهند مثل ملتان ولاهور ودهلى وغيرها"، وجدهم الأعلى السيد جلال الأول هاجر من العراق إلى بخارى حيث تعرض لضيق هناك، فذهب إلى كابل فوجد أهلها كأهل بخارى، فذهب إلى الهند، والتزم التقية والمداراة، فصار من المقربين والمعظمين لدى سلاطينها[1].

ومن الشيعة الإسماعيلية الذين هاجروا إلى الهند "حافظ الدين أحمد بن جلال الدين عبد الله المدائنى"، وينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب، وقد كان من دعاة الإسماعيلية فى الهند، حيث استقر بمدينة "تانا" بالهند، وله أولاد بها من أم ولد تزوجها من أهل البلدة. وقد ذكره السيد محمد بن أحمد بن عميد الدين الحسينى النجفى فى "المشجر الكشاف لأصل الأشراف" مطبوع بمصر، وكناه بأبى نصر، ولقبه عز الشرف، وذكر أنه كان خليفة أبى عبد الله الداعى الإسماعيلى فى الهند الذى سبق الحديث عنه فى الفصل الثانى من هذا الباب[2].

ومن العلويين الذين هربوا إلى الهند "جعفر الملك بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الأطراف بن على بن أبى طالب" كان قد خاف بالحجاز على نفسه وأسرته، فهرب فى ثلاثة عشر رجلاً من أولاده، وقد تقلبوا فى البلاد حتى وصلوا الملتان بالسند التى كانت مركز للدعوة الشيعية بالسند، فلما دخلوها التف حولهم أهلها وكثير من أهل السواد، فأصبح مع جعفر الملك جماعة قوية فسيطر بهم على البلد وخوطب بالملك وملك أولاده هناك، وأعقب هناك وأولاده كثير انتشروا فى البلاد، ومنهم ملوك وأمراء وعلماء ونسابون وأكثرهم على مذهب الإسماعيلية، ويتكلمون بلغة أهل البلاد الهندية، وهو يحفظون أنسابهم[3].

ومن العلويين الذين هاجروا إلى الهند وتزوجوا وانجبوا بها "محمد الأكبر بن عمر الميخوراتى بن محمد"، وينسب أبوه إلى قرية ميخوران من سواد بلخ[4].

ومن الشيعة المهاجرين إلى الهند " أبو الغنائم زيد بن على النقيب جلال الدين ابن أسامة بن عدنان بن نجم الدين أسامة بن النقيب شمس الدين بن عبد الله أحمد الحسينى من

---

(1) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج18، ص483.

(2) محسن الأمين: المصدر نفسه، ج22، ص311. أحمد بن على بن الحسين: عمدة الطالب فى أنساب أبى طالب، ص317.

(3) محسن الأمين: المصدر نفسه ، ج18، ص459،460.

(4) أحمد بن على بن الحسين: المصدر نفسه ، ص333.

ذرية الحسين ذى الدمعة ابن زيد الشهيد" كان شاعراً فاضلاً هاجر من العراق إلى الهند، هو وأخوه ضياء الدين أبو القاسم على، وقد عملا على نشر المذهب الشيعى هناك و التف حولهما أتباع كثيرين، وتولى زعامة الطالبيين هناك، وكان أبو القاسم زعيم ألف فارس، وماتا بالهند، ولهما ذرية بها[1].

ومن الشيعة الذين هاجروا واستقروا بالهند السيد "عماد الدين بن محمد بن محمد بن الحسين بن قريش" من عقب إبراهيم بن الحسن المثنى، سافر إلى خراسان ومنها إلى الهند، حيث استوطن بدهلى وتزوج هناك وأعقاب بها[2]، ومن الشيعة الذين استقروا بالسند بعض نسل "عبد الرحمن بن القاسم البطحانى" من عقب زيد بن الحسن[3].

ومن العلويين المجاهدين فى فتوحات الهند "نجم الدين بن على بن أبى على بن أبى يعلى محمد بن أبى طالب حمزة بن محمد بن الطاهر بن جعفر ابن على الهادى بن محمد الجواد بن على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب" وقد كان يعيش فى "بيهق" وهاجر منها إلى الهند، والتحق بخدمة السلطان محمود بن سبكتكين وأصبح من أمراءه، وقد سافر إلى الهند لنصره القائد العظيم مسعود الغازى "فدوخ تلك البلاد بنجدته" وفتح الحصن المسمى "أديانكر" واتخذه مقراً لنفسه، وسماه "جاى عيش" وهى كلمة فارسية معناه "محل العيش أو محل الأنس" وبكثرة الاستعمال سمى "جائس"، وهى الآن قرية تسمى بهذا الاسم، ثم أتى من بعده من سلالته السيد زكريا الذى مد فتوحاته إلى قرية "تياك لوبر" فسيطر عليها وسماها باسم جده السيد نصير الدين "نصير آباد" وكانت مهنتهم فى هذه القرية الحرث والزراعة[4].

---

(1) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج33، ص32. أحمد بن على بن الحسين: عمدة الطالب فى أنساب أبى طالب، ص246.

(2) أحمد بن على بن الحسين: المصدر نفسه ،ص143،144.

(3) أحمد بن على بن الحسين: المصدر نفسه ، ص 59.

(4) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج31، ص31،32.

ومن العلويين المعروفين فى الدولة الغزنوية "الحسن بن طاهر بن مسلم بن عبيد الله بن طاهر"، وكان أميراً شريفاً جم الفضائل، سكن بمصر، وروى كتاب الزهرى فى النسب، وكان قريباً من السلطان، ويعرفه المصريون بمسلم العلوى، أما عن قصة التحاقه بالسلطان محمود الغزنوى، فلأن الخليفة المعز بالله الفاطمى بمصر وجد فى داره أو على منبره رقعة فيها:

إن كنت من آل أبى طالب فاخطب إلى بعض بنى طاهر

فإن رآك القوم كفؤاً لهم فى باطن الأمر وفى الظاهر

فأم من خالف خوزيـة بعض منها لبطن بالآخـر

ويقال أن أم جدهم محمد بن عبد الله بن ميمون خوارزمية فلهذا عرض الشاعر بها، فلما قرأها المعز خطب إحدى بنات مسلم بن عبيد الله بن طاهر لابنه العزيز، فاعتذر له أن كل بناته فى عقد، فحبسه المعز وصادر أمواله، ولم يعرف مصيره إن كان مات فى الحبس أو هرب إلى الحجاز، وقد ذهب ابن ابنه الحسن بن طاهر إلى المدينة ثم ذهب إلى غزنة والتحق بالسلطان محمود الغزنوى، وقد اتفق وصول التاهرتى رسولاً من الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود الغزنوى، وقد نفى عنه الحسن بن طاهر نسبه العلوى، فقتل[1].

ومن العلويين الذين دخلوا غزنة الشريف النسابه "أبو حرب محمد بن الحسن بن الحسين بن على بن محمد الأصغر بن حمزة القتليسى بن على الدينورى" المذكور بلقب "شيخ الشرف"، من بنى زياده، كان ببغداد وسافر إلى بلاد العجم، وطاف بالبلاد، وتوفى بغزنة سنة نيف وثمانين وأربعمائة[2]، ومن العلويين بغزنة وقت السلطان محمود بن سبكتكين "أبو البركات على بن الحسين بن على بن جعفر بن محمد الجوركان"، وكان من الشعراء المشهورين[3].

وقد وصلت هجرة الشيعة إلى حدود كشمير، فقد ذكر مطهر بن طاهر المقدسى أن بختن –وهى أعظم مدن إقليم راشت وهو أعالى خراسان وجنوبها قشمير– وأهلها يعبدون

---

(1) أحمد بن على بن الحسين:عمدة الطالب، ص139، 140، 301. أحمد المنينى: شرح اليمينى، ص237:250.

(2) أحمد بن على بن الحسين: المصدر نفسه ، ص312.

(3) أحمد بن على بن الحسين: عمدة الطالب فى أنساب أبى طالب، ص221.

الأصنام، إلا أن بها جماعة من ولد الحسين بن على ابن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهم بها مساجد[1].

ومن ذلك نجد أن العلويين والشيعة قدموا إلى السند والهند وانتشروا بها داعين إلى الإسلام، وقد نجحوا فى نشر الإسلام فى الهند، ودخل كثير من الهندوس على أيديهم إلى الإسلام[2]، فعلى سبيل المثال قبيلة يام فى الهند استجابت لدعوة الصليحيين، وهى إلى الآن تنتمى لبهرة الهند[3].

ومن القبائل المحلية التى دخلت فى الدعوة الإسماعيلية قبيلة "السمرا" حكام السند، وهم قبيلة محلية فى السند اعتنقت الإسلام منذ الفتح العربى الأول للسند فى القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى، وقد اعتنقوا المذهب الإسماعيلى نتيجة جهود الدعاة الإسماعيلية فى السند. وقد كثر تزاوج السمرا من العرب المستقرين هناك مما أكسبهم قوة ومنعة، واستعملوا أسماء عربية هندية مختلطة، ورغم اعتناقهم الإسلام إلا أنهم ظلوا محتفظين بكثير من عاداتهم الهندوكية القديمة، وربما كان ذلك أحد الأسباب التى جذبتهم للمذهب الإسماعيلى الذى عمل دعاته إلى تقريبه لهم بممازجته بالتقاليد والأفكار المحلية للهندوس[4].

ويتركز البهرة أو المستعلية الهنود فى كَجرات ووسط الهند وبومباى خاصة، أما الإسماعيلية النزارية بالهند فتنتشر جالياتهم فى جميع أرجاء الهند، فى شمالها فى جترال وكَلكَت وهونزه وغيرها، وفى غربى الهند فى السند وكَجرات وبومباى[5]، كما ينتشروا فى كشمير واحمد أباد وسورت وغيرها[6].

---

(1) مطهر بن طاهر المقدسى: البدأ والتاريخ، مج2، ص63، 64.

(2) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص506.

(3) محمد بن مالك بن أبى الفضائل: كشف أسرار الباطنية، ص44.

(4) سيد مقبول أحمد: العلاقات العربية الهندية، ص49.

(5) إيفانوف: الإسماعيلية، دائرة المعارف الإسلامية، مج3، ص388.

(6) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، ج4، ص261.

احتفاظ الإسماعيلية الهنود بعاداتهم وتقاليدهم :

ومن الطوائف الهندية التى اعتنقت الإسلام على المذهب الإسماعيلى وظلت محتفظة بتقاليدها، فرقة "الناجوشية" وهى من طائفة البهرة الذين يقيمون فى ولاية بروده بالهند، وهذه الفرقة كانوا فى الأصل من براهمة الهند، ثم اعتنقوا الإسماعيلية الطيبية، ولذلك نجدهم يتبعون فى معيشتهم نفس التقاليد التى عند البراهمة ومنها عدم أكل اللحوم[1].

وقبيلة السمرا الذين كانوا حكاماً للسند، اعتنقوا الإسلام أيام الفتح العربى الأول للهند (فى ق 2هـ/8م)، وظلوا محافظين على التقاليد الإسماعيلية الفاطمية التى كان آباؤهم عليها من قبل، ولم يعترفوا بالولاء لأى دعوة خارجها[2].

ومن أسباب نجاح الدعوة الإسماعيلية، مخاطبتهم الناس على قدر عقولهم[3]، وتبسيط الدعوة لهم بما يقاربها من معتقداتهم وعاداتهم، والداعى الشيعى ملم بديانات البلدان التى يدعو بها، وملم بلغاتهم، وله قدرة على الجدل والتفلسف، وهو يبدأ فى دعوتهم بإثباته أن الأديان كلها معانيها متقاربة ودعوتها واحدة، وأن الناس لا علم لهم بذلك لعلمهم بالظاهر دون الباطن، ويبدو فى ذلك التأثر بالتصوف الإسلامى[4].

عمل الدعاة الإسماعيلية على دراسة عادات وتقاليد الهنود وتعلم لغة الإقليم الذى يقومون بالدعوة فيه حتى يتمكنوا من الاختلاط بالأهالى وإقناعهم بالدخول فى الإسلام على المذهب الإسماعيلى، فعمل عبد الله الذى أرسله القاضى لمك بن مالك الحمادى إلى الهند فوصل إلى الساحل الغربى للهند فى ولاية الكَجرات بميناء كمبايت، وتسرب عبد الله فى

---

(1) أحمد عبد القادر الشاذلى: حركات الغلو والتطرف فى الإسلام، ص74.

(2) سيد مقبول أحمد: العلاقات العربية الهندية، ص49.

(3) الغزالى: فضائح الباطنية، ص 35.

(4) محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى (من فقهاء السنة فى اليمن فى أواسط المائة الخامسة للهجرة): كشف أسرار الباطنية وأخبار القارمطة، تقديم وتعليق محمد زاهد بن الحسن الكوثرى،نشره وصححه عزت العطار، مطبعة الأنوار، 1939، المقدمة، ص8.

المزارع والبساتين بتستر شديد، وتعلم اللغة الكَجراتية حتى نجح فى تحويل مضيفه والكاهن والوزير ثم الملك نفسه إلى الإسلام[1].

كما حرصت الدولة الفاطمية على توجيه دعاة هنود من الذين اعتنقوا المذهب ووصلوا إلى مرتبة الدعاة، فهم أقدر الناس على فهم عادات وتقاليد أهلهم وملمين بلغتهم، مما يسهل لهم إقناعهم بالإسلام وإدخالهم فى المذهب الإسماعيلى، فزميلا الداعى عبد الله الهنديين "بالم نات" أو "مولانا أحمد"و "روب نات" أو "مولانا نور الدين" أسلما بمصر على يد داعى الدعاة "المؤيد فى الدين"، ثم وجه المؤيد هؤلاء الدعاة إلى اليمن مع "القاضى لمك"، وسيرهم لمك بتوجيه من المؤيد لنشر الدعوة فى الهند. ويروى أن الدعاة الثلاثة وصلوا إلى الساحل الغربى للهند فى ولاية الكَجرات ثم توجه مولانا أحمد "بالم نات" ومولانا نور الدين "روب نات" إلى "دهن كام" وهى بلدتهما فى الدكن بمقتضى تعليمات القاضى لمك بن مالك، فانتشرت الدعوة فى القرية وعمت المنطقة كلها[2].

وحرصت الدولة الفاطمية على توليه أبناء الدعاة الموفدين إلى الهند إذا رأت صلاحيتهم لذلك، لخبرتهم بأحوال الدعوة فى الإقليم الذى كان آباؤهم يقومون بالدعوة فيه، ولنشأتهم فى هذه البلاد أثناء ممارسة آبائهم الدعوة بها، مما جعلهم ملمين بأحوال أهلها وطبائعهم وعارفين بلغتهم، ومتداخلين مع أهلها مختلطين بهم، ومن أمثلة ذلك السجل الثامن والخمسين من السجلات المستنصرية، الذى أرسله المستنصر إلى الملك المكرم، نستدل منه أن الملك المكرم قد رد عليه فى شعبان سنة 468هـ/1075م بترشيح ابن الداعى المتوفى غرس الدين يوسف ابن حسين الصدابورى، وقد وافق المستنصر على الداعى المرشح، وأنفذ تقليد دعوة الهند إليه، ولقبه بلقب أبيه "غرس الدين"[3].

وكذلك فى السجل الخمسين الذى أرسله المستنصر إلى السيدة الحرة فى ذى القعدة سنة481هـ/1088م، رداً على كتابها الذى ذكرت فيه وفاة داعية الهند "غرس الدين، ولى أمير المؤمنين، مرزبان"، وأنه خلف ولدين صالحين للخدمة لدينهم، وقد رشحت أكبرهما أحمد

---

(1) حسين الهمدانى،حسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، ص224

(2) حسين الهمدانى،حسن سليمان محمود: المرجع نفسه، ص224، 225.

(3) السجلات المستنصرية، ص190:193.

ليخلف أباه فى الدعوة لتميزه وحميد خصاله. وقد وافق المستنصر على تعيينه، وأمرها بإرساله مؤيداً بكتب تعيينه من السيدة الحرة، ليتأكد أمره، وتنشرح له صدور الرعية هناك[1].

وكان الدعاة الإسماعيلية يعملون على دراسة عادات وتقاليد البلد الذى يبثون فيه دعوتهم حتى يتمكنوا من جذب أهلها لدعوتهم، وقد كان ذلك يقتضى أن يكون الداعى على قدر كبير من الذكاء، وأن يكون عارفاً الطبائع البشرية، مما كان يجبر الداعى على أن يكون عالماً، قادراً على الوصول إلى أعماق النفوس، وهذه الخطوة التى يخطوها فى الدعوة تسمى "التفرس" وهى من أخطر خطوات الدعوة فعليها تقوم الخطوات الأخرى[2]، وقد استفادوا بذلك من وضع طبقة المنبوذين واضطهادها فى الهند ونجحوا فى نشر دعوتهم بينهم، ومن الدعاة الإسماعيلية الذين نجحوا فى ذلك داعى يسمى "نور الدين" اشتهر باسمه الهندى الذى اتخذه لنفسه وهو "نورستاجر" ولكنه أخبر المسلمين أن اسمه الحقيقى هو "سيد سعادت"، وقد وفد من آلموت إلى الكَجرات فى عهد الملك الهندى "سِدهاراج" (487: 528هـ/1094: 1143م)، وقيل أنه أدخل الطبقات المنحطة "المنبوذين" فى الكَجرات وقبائل كنبى وخواروس أو خواراس Kharwas وكورى، وقد كان نورستاجر موضع تكريم واحترام باعتباره أول داعى من دعاة الخواجات "الإسماعيلية النزارية" فى الهند[3].

وبذلك فقد كان من أهم أسباب انتشار المذهب الإسماعيلى ما تبنته الشيعة من ثورة الطبقات المظلومة، ونشر المذهب الإسماعيلى بين هذه الطبقات المضطهدة المنبوذة المظلومة يدل على مدى أهمية العاملين الاجتماعى والاقتصادى فى الدعوة، وقد صرح الغزالى بذلك، فقد ذكر أن خطر الهرطقة الرئيسى فى استهوائها الطبقات العاملة وأهل الصناعات والحرف، وقد استطاعت الإسماعيلية باتصالها بطبقة العمال الصناع وأصحاب الحرف أن تؤثر فيهم

---

(1) السجلات المستنصرية، ص167:169.

(2) إدوارد جرانفيل براون: الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربى، مطبعة السعادة، مصر،1945، ص109.

(3) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص235.

تأثيراً قوياً عميقاً[1]، وقد اهتم بذلك الحسن بن الصباح خاصة فرغم أنه كان عالماً مبرزاً، إلا إنه لم يهتم بنشر دعوته بين العلماء بقدر ما كان يلجأ إلى نشرها بين العامة، حتى يسهل عليه وعلى دعاته التأثير فيهم، وخصوصاً وقد كان يصور لهم علي بن أبى طالب وأبناءه تصويراً محزناً يصل إلى سويداء القلب[2].

ونجح دعاة الإسماعيلية الغلاة فى الهند وهؤلاء خرجوا على تقاليد الإسلام، ومنهم الشيخ "صدر الدين السندى" والداعى إمام الدين الحسينى الإسماعيلى اللذين سبق الحديث عنهما[3].

وكذلك ما ذكره الداعى عماد الدين إدريس عن خروج أحد دعاة الإسماعيلية فى السند عن حدود الإسلام، فقد دخل على يديه كثير من الهنود فى الإسلام فتركهم على كثير مما هو محرم فى الإسلام مما يستحلونه فى دينهم، بل تعدى ذلك إلى أن أباح محارم الله لبعض أهل دعوته من المسلمين وغيرهم، وقد بلغ الخليفة المعز لدين الله الفاطمى خبره من رسل كان الداعى قد أنفذهم إليه وأخفى عنه أمره، ولكن بسؤال المعز للرسل علم أمره واستنكره، وكان فى هؤلاء الرسل خير، فأعلمهم المعز عظيم ما ارتكبوه فتابوا على يديه، ثم سألهم عن أفضل من ببلدهم فسموا له رجل فكتب له بأمر الدعوة بالسند، واستعمال الحيلة فى قتل الداعى المرتد عن دينه، وأنفذ أولئك الرسل بذلك وبالرد على كتاب الداعى، وما كان إلا مقدار وصول الرسل إلى بلدهم وانصرافهم إذ جاء رسل آخرون من السند فبشروا الخليفة بانتشار الدعوة فى السند وكثرة أهل دعوتهم، وأن ذلك الداعى المرتد لم يكن قد اطلع أحد على أفكاره إلا خاصته، وقد كان أتباع ذلك الداعى المرتد يطيعونه ويعظمون أمره، ولكن الله كفاهم شره إذ توفاه قبل قدوم رسل المعز إليه، وذلك قبل أن يعهد بخلافة الدعوة إلى

---

(1) برنارد لويس: أصول الإسماعيلية، نقله إلى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب، دار الكتاب العربى مصر، 1974، ص191،190، 193.

(2) طه أحمد شرف: دولة النزارية أجداد أغاخان، ط1، القاهرة، 1950، ص68.

(3) عبد الحى الحسنى: الثقافة الإسلامية فى الهند، ص213.

أحد -وقد عين الخليفة المعز بعد ذلك فيهم جلم بن شيبان[1]- وقد عمل جلم بن شيبان على محو آثار الداعى المرتد السابق، وتعهد بتطبيق الشريعة الإسلامية على الهنود الذين اسلموا ودخلوا فى الدعوة، وتأكيداً لسياسته هدم جلم صنم الملتان الذى كان الهندوس يحجون إليه سنوياً[2].

ويرجع سبب نجاح هؤلاء الدعاة الغلاة فى نشر مذهبهم بين الهندوس لأنهم نجحوا فى تقريب دعوتهم إلى الهندوس، ومزجوا بين الإسماعيلية وبين معتقداتهم، ونسجوها فى ثوب هندوسى، ولذلك كان غالبية أتباعهم من الهندوس، أو حديثى العهد بالإسلام الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم بالإضافة إلى قلة بصيرتهم بالدين[3].

وعلى الرغم من أن الفاطميين لم يشجعوا الأفكار المتطرفة[4]، فيهاجم داعى الدعاة المؤيد فى الدين الشيرازى فى كتابه "المجالس المؤيدية": "استعيذوا بالله من قوم يقولون بأفواهم أنهم شيعة وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة، يستوطئون مركب الإباحة، ويميلون ميل الراحة، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين، فإذا عرف سقطت الصلاة، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرف بطلت الزكاة، وأن الصوم هو السكون عن إفشاء سرهم إلى غير أهله، فإذا هم سكتوا لم يبقى بهم حاجة إلى الصوم واحتمال كده، وأن النهى عن شرب الخمر هو النهى عن موالاة بعض الأضداد فإذا هم كفوا كان شربهم حلالاً سهل القياد، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من التكاليف الشرعية كل عقد، ويردوا فى مهاوى الردى فى تحليل المحرمات شر ورد، وهؤلاء أضر بالدين وبالمؤمنين ممن شهر سيفه وشرع رمحه إلى أئمتهم بالبغضاء"[5].

---

(1) الداعى إدريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص616:645.

(2) إدريس عماد الدين: المصدر نفسه ، ص646، 661.

(3) الغزالى: فضائح الباطنية، ص 35.

(4) إيفانوف: الإسماعيلية، دائرة المعارف، مج 3، ص392.

(5) المجالس المؤيدية، ص37. مصطفى غالب: الحركات الباطنية، ص106.

فقد عملت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بالمغرب فى سنة 297هـ /909م على أن تظهر فى صورة حامية الإسلام والمدافعة عن الشريعة، وقد قسموا المعرفة إلى ظاهر وباطن، ولكنهم تمسكوا بظاهر الشريعة، واعتبروه الأصل الثابت للإسلام، أما علم الباطن فعبادة علمية لا وجوب لها إلا على من أرادها واستحقها بالطاعات. أما ما اشتهر عن الفاطميين باسم "الباطنية" واتهموا بتعطيل الشريعة، فذلك يرجع إلى نشأة القرامطة أولاً ثم الدروز ثم النزارية وخروجهم جميعاً عن الدعوة الفاطمية الرسمية، واتخاذهم مبدأ الباطن أساساً لمذهبهم، وتعطيلهم الشريعة، وغلوهم فى أشخاص الأئمة[1].

وصادفت الدعوة الإسماعيلية هوى فى نفوس جماعات مختلفة فى العنصر والدين، فأنشأت بحكم الضرورة نطاقاً قوياً من مذهب الشمول فى العقيدة، وربما يكونوا قد تأثروا بها من فرقة يهودية اسمها "عيسوية أصفهان" ادعت فى أثناء خلافة عبد الملك بن مروان الأموى أن محمد وعيسى كانا نبيين صادقين بالنسبة إلى شعبيهما اللذين ظهرا فيهما، وقد طور الإسماعيلية هذه الفكرة وصاغوها نظاماً محكماً أصبحت بموجبه الصحة النسبية لجميع الأديان معترفاً بها، وألغى التعصب الدينى إلغاءً تاماً[2].

وخير تعبير عن هذا نجده فى رسائل إخوان الصفا، ونقتبس منها بعض العبارات التى تحمل نغمة الحرية الدينية: "... وينبغى لإخواننا أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها".

"... ومن الناس من يرى ويعتقد فى دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم ويرثى للمذنبين ويستغفر لهم ويتحنّن على كل ذى روح من الحيوان، ويريد الصلاح للكل وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين، وهكذا مذهب إخواننا الكرام".

"واعلم أيها الأخ أن من سعادتك أيضاً أن يتفق لك معلم ذكى، جيد الطبع، حسن الخلق، صافى الذهن، محب للعلم، طالب للحق، غير متعصب لرأى من المذاهب".

---

(1) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، ص244،245.

(2) برنارد لويس: أصول الإسماعلية، ص197،198.

وفى مقاله أخرى يوجه النصح بتوجيه الدعوة إلى الشباب لا الشيوخ لما يكون عليه الشباب من رغبة فى التعلم وسلوك طريق الدين، وترك الأهواء والجدل "غير متعصبين على المذاهب"[1].

ونجد فى الكتابات الإسماعيلية شواهد كثيرة على تحرر الإسماعيلية الدينى منها ما ذكره جعفر بن منصور اليمن فى كتابه " الشواهد" فهو يعد الصابئين من المؤمنين بالله، ويقول بأن اليهود والمسيحيين وأتباع أى دين آخر، يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات ويطيعون الله، يدخلون الجنة.

وقد أفزع مذهب "الشمول فى العقيدة" Interconfessionalism فقهاء السنة، وقد أسهب ابن رزام فى الكلام عن تسامح الدعوة الباطنية الدينى وعن محاولتهم ضم الناس من كل دين بعرضهم لهم ما هو أكثر استهواءً وتشويقاً، ويذكر ذلك الغزالى أيضاً ويأسف له ويستعيذ منه. وقد ظهرت روح التسامح والتحرر هذه فى سياسة الخلفاء الفاطميين السمحة تجاه مخالفيهم فى العقيدة وما منحوه لهم من حرية دينية، كما ظهر التيار القوى لمذهب الشمول فى العقيدة فى الآداب الإسماعيلية المتأخرة[2].

احتفال الشيعة بأعيادهم فى الهند:

تعتبر الأعياد عند المسلمين انعكاساً أميناً لصورة المظهر الإسلامى الذى يحيط بالحياة العامة فى ذلك الوقت وعلى الأخص تلك البلاد ومن يسكنها من شعوب، والتى شملتها الحكومات الإسلامية فى الهند ومنها سلطنة دهلى[3].

ومن أهم أعياد الشيعة التى احتفلوا بها فى الهند، اليوم التاسع من المحرم ويسمى "تاسوعاء" على مثال عاشوراء، وهو يوم يصلى فيه الزهاد من الشيعة، واليوم العاشر منه يسمى "عاشوراء" وهو يوم مشهور الفضل، وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال "أيها الناس سارعوا إلى الخيرات فى هذا اليوم فإنه يوم عظيم مبارك قد بارك الله فيه على آدم"

---

[1] رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء،ج4، ص51، 52.

[2] برنارد لويس: أصول الإ سماعلية، ص197،198.

[3] عادل رستم: مظاهر الحضارة الإسلامية فى عهد سلطنة دهلى، ص350،351.

وكان المسلمون يعظمون هذا اليوم إلى أن اتفق فيه مقتل الحسين بن على بن أبى طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأصحابه بالعطش والسيف والإحراق وصلب الرؤوس وإجراء الخيل على الأجساد، فتشاءم به الشيعة، أما بنو أمية فقد لبسوا فيه وتزينوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلوى وجرى الرسم فى عامة المسلمين على ذلك فى أيام ملكهم وبقى فيهم بعد زواله عنهم، وأما الشيعة فإنهم ينوحون ويبكون أسفاً لقتل سيد الشهداء، ويظهرون ذلك، ولذلك كره عامة الشيعة فيه تجديد الأوانى والأثاث، وفى هذا اليوم أيضاً قُتل إبراهيم بن الأشتر ناصر آل رسول الله ويقال أن الله تاب فيه على آدم واستوت سفينة نوح على الجودى وفيه ولد عيسى ونُجى موسى وبرد النار على إبراهيم ورد على يعقوب بصره وأُخرج يوسف من الجب وأُعطى لسليمان ملكه ورفع العذاب عن قوم يونس وكُشف الضر عن أيوب وأجيب دعاء زكريا ووهب له يحى[1]، وعندما تحل هذه الأيام يقدم كثير من الناس على زيارة التربة المسعودة بكربلاء حيث قبر الحسين ويتلون الأدعية، ويجل الشيعة هذا اليوم ويهبون فيه الصدقات ويبكون وينوحون على الحسين ويلعنون يزيد[2].

ومازال الشيعة يحتفلون بذكرى مأساة وفاة الحسين فى العاشر من المحرم سنة 61هـ/680م حتى اليوم فى الهند، ويحتفل بها باهتمام عظيم فى "لكناو" على وجه الخصوص فى الهند، وذلك لأنها مركز النشاط الثقافى للشيعة حالياً، ومن مظاهر احتفالهم أن يطوف الناس بالمدينة حاملين عدداً كبيراً من التعزيات، عبارة عن نماذج خشبية مكسوة بالورق الملون تمثل مقام الإمام الحسين ويطوف المحتفلون حاملين هذه النماذج والأعلام حتى ينتهى بهم المسير إلى ميدان فسيح يعرف باسم "إمام باراس" أو ساحة الإمام حيث توارى النماذج التراب ويعود المحزونون إلى بيوتهم متفجعين.

ولما كان الشيعة يعتقدون أن الأمويين حرموا حتى الماء القراح على الحسين وأسرته وأصحابه قبل المعركة، ولذلك فإن المحتفلين يقدمون الماء وأكواب الشراب المحلى بكثرة

---

[1] البيرونى: الآثار الباقية، ص329،330.

[2] الكرديزى: زين الأخبار،ص350.

وكرم زائدين لأولئك الحزانى العائدين، تخليداً لذكرى عطش الإمام الحسين فى واقعة كربلاء.

وفى غير لكناو من المدن تؤخذ التعزيات إلى حيث تدفن فى ساحة قرب المدافن المحلية، ويطلق عليها اسم "كربلاء"، ويمثل المصارعون والرياضيون من المحتفلين مشاهد من موقعة كربلاء بينما يطاف بالأعلام فى احتفال مهيب فى الأيام التسعة الأولى من الشهر الحرام[1].

وفى اليوم الأول من صفر أُدخل رأس الحسين مدينة دمشق عند يزيد، فقد قتل شمر بن ذى الجوشى الحسين رضى الله عنه، وقطع عمرو بن سعد رأسه بكربلاء[2].

وكان يحتفل فى الهند بيوم الأربعاء من شهر صفر ويسمى "آخر جهار شنبه" ذلك لأن النبى (ﷺ) إبان مرضه الأخير خفت آلامه بعض الشيء على ما يقال، ويحتفل بهذا اليوم المسلمون الهنود، وممن يسمون "الصديقين"، وهم الذين اعتنقوا الدعوة المحمدية وصدقوها فى وقت لاحق، ولكن هناك هنود من الشيعة يتشاءمون به ويطلقون عليه "جهار شنبه سور" أى يوم الأربعاء الذى تصدر فيه آخر نفحة فى الصور يوم الحشر[3].

ومن الأيام المعظمة عند الشيعة السادس من رمضان الذى كان مولد الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه، وفى السابع عشر منه ضرب عبد الرحمن بن ملجم المرادى على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفى اليوم الحادى والعشرين قبض أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وفى اليوم الثانى والعشرين كان مولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب[4].

ومن الأيام الخاصة باحتفال الشيعة اليوم الرابع من شوال، وفيه حدثت مباهلة الرسول (ﷺ) مع نصارى نجران، وأخرج فيه الحسن والحسين مقام أبنائه وفاطمة مقام نسائه وعلى بن أبى طالب قربه إلى نفسه تنفيذاً لأمر الله تعالى له كما جاء فى آية المباهلة على حد زعمهم،

---

(1) بطرس روفائيل: المسلمون فى الهند، ص43،45.

(2) البيرونى: المصدر نفسه ، ص332. الكرديزى: المصدر نفسه،ص351.

(3) عادل رستم: مظاهر الحضارة الإسلامية فى عصر سلطنة دهلى، ص351.

(4) البيرونى: الآثار الباقية، ص332، 333.

وفى أول ذو الحجة زوج الرسول (ﷺ) ابنته فاطمة من ابن عمه على بن أبى طالب، ويقول الشيعة أن ذلك كان بأمر الله تعالى، وقد أتى به جبريل من السماء[1].

واليوم الثامن عشر من ذى الحجة هو يوم "غدير خم" وهو اسم المرحلة التى نزل بها الرسول (ﷺ) عند منصرفه من حجة الوداع، وجمع القتب والرحال وعلاها، وأخذ بعضد على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم، قالوا: بلى، قال "فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار"، ويروى الشيعة أنه رفع رأسه نحو السماء، وقال اللّهم هل بلغت ثلاثاً[2]، وقد اتخذ الشيعة من هذه الحادثة دليل على إمامة على بن أبى طالب بعد وفاة الرسول (ﷺ).

ثانياً النشاط الاقتصادى للشيعة فى الهند من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى إلى القرن السادس الهجري الثانى عشر الميلادي:

لا تبين لنا المصادر حقيقة النشاط الاقتصادى للحكومة الإسماعيلية فى الملتان، ولكن يبدو مما ذكره المقدسى عندما زار السند فى حدود سنة 375هـ/985م حيث كانت الملتان مازالت خاضعة لحكم الشيعة، أن الحالة الاقتصادية للبلد كانت منتعشة، ويدل على ذلك ما ذكره المقدسى من انتعاش التجارة، وأن " الخير بها كثير"، ومما يدل على قوة اقتصاد الملتان فى هذه الفترة تمكن حكومة الإسماعيلية بها من سك عملة خاصة بها، فقد ذكر المقدسى أن "دراهم الملتان على عمل دراهم الفاطمى"، وبذلك فقد تمتعت الملتان فى هذه الفترة باقتصاد قوى مستقل[3].

واندمجت الشيعة مع أهالى البلد من الهندوس، وعملوا بحرفهم، فطائفة البهرة يحترفون التجارة وخاصة تجارة الحدايد وأدوات المعمار والمنسوجات، وأينما وجدوا يمثلون أقليات

---

(1) الكرديزى: زين الأخبار،ص361.

(2) البيرونى: الآثار الباقية، ص335.

(3) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص381،382.

مترابطة بروح التعاطف والمساعدة، ولذا لا يوجد بينهم فقير أو محتاج، وإذا حلت بأحدهم كارثة هب الجميع لمساعدته، وهم جميعاً يقدسون داعيهم المطلق ويطيعونه طاعة عمياء[1].

كما عمل بعض الشيعة بالزراعة تبعاً لعمل أهل المنطقة التى استقروا بها، فقد سبق ذكر أن السيد زكريا -من سلالة "نجم الدين بن على بن أبى على" الذى ينتمى نسبه إلى على بن أبى طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- الذى فتح قرية "تياك لوبر" وسماها باسم جده السيد نصير الدين "نصير آباد" كانت مهنتهم فى هذه القرية الحرث والزراعة[2].

دور التجارة فى نشر المذهب الإسماعيلى فى الهند:

سارت التجارة مع الهند فى ثلاث طرق:

1. براً من الممرات على الحدود الشمالية الغربية للهند إلى بلخ، ثم على خط سير القوافل شمال صحراء كرمان إلى خراسان ثم إلى سواحل الشام.
2. بحراً من الساحل الغربى للهند إلى الخليج الفارسى مصعداً بالفرات ثم براً إلى سواحل الشام.
3. بحراً من الساحل الغربى للهند إلى ساحل عمان إلى ساحل اليمن ومن هناك إما على طول ساحل البحر الحمر أو على خط سير القوافل إلى موانئ الشام[3].

وكانت بغداد عاصمة الخلافة العباسية المركز التجارى الأول فى العالم الإسلامى، فلأول مرة ترتبط عاصمة الخلافة بطرق مائية مع بحر العرب بواسطة نهرى دجلة والفرات اللذان يصبان معاً فى الخليج العربى، وقد نشطت بذلك تجارة الخليج العربى مع الهند والسند، وقد أثر ذلك تأثيراً سلبياً على التجارة المصرية[4].

---

(1) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص58.

(2) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج31، ص31،32.

(3) محمد يوسف: علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجرى، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، مايو 1953، مج15،ج1، ص4.

(4) رمزية عبد الوهاب الخيرو: تجارة الخليج العربى وآثارها فى الحياة الاقتصادية فى منطقة الخليج والعراق منذ صدر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، ص150.

ولكن مع وصول الفاطميين إلى الحكم فى مصر انتقل حجم التجارة الإسلامية فى أواخر القرن الرابع الهجرى تدريجياً من العراق والخليج الفارسى إلى مصر والبحر الأحمر وموانئ شبه الجزيرة العربية، وقد ساعد على ذلك اضطراب أحوال الخلافة العباسية، وعدم الأمان فى موانئ الخليج فى وقت أوج قوة الفاطميين المتزايدة[1].

وفى مقال لبرنارد لويس نقلاً عن مقالة د. أيمن فؤاد سيد "العرب وطريق الهند حتى أواسط القرن السادس" شرح تصوره لاستراتيجية الفاطميين الشرقية المتمثلة فى حرصهم على الاحتفاظ بالسيطرة على البحر الأحمر حتى فى أوقات ضعفهم، ولذلك فقد ركزوا جهود دعاتهم على الطرق البحرية والبرية المؤدية إلى الهند، وفى الهند نفسها، مما أدى إلى نمو موانئ البحر الأحمر على حساب موانئ الخليج الفارسى، وذلك ضمن استراتيجية فاطمية كبيرة ترمى إلى تحطيم قوة العباسيين لتحل محلهم كسلطة وحيدة تحكم العالم الإسلامى[2].

كما أن الخلافة العباسية كان يهمها دائماً عرقلة سياسة الفاطميين فى جميع نواحيها، وقد أخذت المنافسة التجارية أحد مظاهر الصراع بينهما، ونظراً لأن النزاع لم يحتدم بينهما فى الفترة السابقة لحكم المستنصر، فقد اعتمدت كل من الدولتين فى تجارتها الخارجية على ناحية معينة من غير التعرض لتجارة الدولة الأخرى. فقد اعتمد الفاطميون على التجارة مع دول البحر المتوسط لأن الدول الغربية فضلت الطريق من الشرق إلى الغرب عبر مصر على الطريق المنافس له عبر بلاد الجزيرة العربية والشام لأنه يستغرق وقتاً اقل، وتكاليف النقل اقل بكثير، وبذلك فقد كانت تجارة الفاطميين قبل القرن الخامس الهجرى رائجة مع المدن الإيطالية وفرنسا وأسبانيا وصقلية والدولة البيزنطية، وبذلك فقد أدى الاتصال التجارى بدول البحر المتوسط إلى إهمال طريق الجنوب مع اليمن والهند[3].

برغم وجود دعاة للفاطميين فى السند والهند إلا إنهم لم يهتموا كثيراً بالتجارة مع الهند، فقد كانت تجارة الفاطميين فى ذلك الوقت تقوم مع أوربا وحوض البحر المتوسط، وخاصة

---

(1) أيمن فؤاد سيد: العرب وطريق الهند حتى أواسط القرن السادس، المؤرخ المصرى، كلية الآداب جامعة القاهرة، ع8، يناير1992، ص76.

(2) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية... ، ص106.

(3) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود:الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، ص228،229.

مع صقلية التى مدوا نفوذهم إليها، وساعدهم على ذلك حسن العلاقة بينهم وبين الدولة البيزنطية فى أعقاب ظهور السلاجقة والمعاهدات التى وقعها الطرفان[1].

ويمكن تعليل عدم اهتمام الفاطميون بطريق التجارة مع اليمن والهند لأن الدولة العباسية لم تكن قد بدأت تنافس الفاطميين بصورة جدية فى هذه الناحية، لأن تولى البويهيون السلطة فى بغداد أوجد بينهم وبين الفاطميين تفاهماً يقوم على أساس اتفاقهم فى المذهب الدينى، ولكن عندما استولى السلاجقة على بغداد تغيرت الأوضاع فى الشرق إزاء الفاطميين، فقد عمل السلاجقة ومن قبلهم الغزنويين على مطاردة أتباع الفاطميين[2]، وخاصة بعد أن استولى السلاجقة على سوريا، ومدوا نفوذهم إلى بلاد الحجاز، فتمكنوا بذلك من ربط تجارة سوريا ببغداد حيث كان طريق التجارة يجرى من الرى ونيسابور وبخارى وسمرقند، وبهذا يمكنها الاتصال بتجارة الهند من ملتان ولاهور إلى كابول وغزنة ثم بخارى ثانية وسمرقند، فتحقق لهم بذلك ما كانوا يرغبون من منافسة تجارة الفاطميين مع الهند[3].

فوضع الفاطميون خطة لتحويل طريق التجارة من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر، وقد قصد الفاطميون بذلك هدفاً مزدوجاً وهو تقوية الخلافة الفاطمية عن طريق الانتعاش الاقتصادى ثم إضعاف الخلافة العباسية، وقد ساعدت الظروف الفاطميين فى تحقيق هدفهم، فقد جعلت الفوضى التى اجتاحت العراق وإيران فى ذلك الوقت الخليج الفارسى غير آمن[4]، وقد هيأ موقع مصر المثالى للفاطميين أن يحصلوا على نصيب كبير من التجارة الدولية، كما أن دعاة الإسماعيلية فى الهند استطاعوا بعد زيادة جهودهم أن يحققوا نجاح أكبر لا بنشر المذهب الإسماعيلى بين الهنود فقط ولكن أيضاً بخدمة النشاط التجارى الفاطمى فى الهند، وقد بذل الفاطميون كل الوسائل الممكنة لاجتذاب تجارة المحيط الهندى من الخليج

---

(1) أيمن فؤاد سيد: المرجع نفسه ، ص107.

(2) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، ص229.

(3) حسن سليمان محمود: الصليحيون فى اليمن، ص249.

(4) أيمن فؤاد السيد: الدولة الفاطمية فى مصر (تفسير جديد)، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1992، ص130.

الفارسى إلى البحر الأحمر، ووجهوا اهتمامهم نحو اليمن والدولة الصليحية لخدمة أهدافهم[1].

كما أنه بعد فقد الفاطميون كل ممتلكاتهم فى المغرب وجهوا كل جهودهم نحو الشرق ونحو اليمن -أول مراكز الدعوة الإسماعيلية بصفة خاصة- حيث وجدوا أتباعاً أكثر تمسكاً بالمذهب ودفاعاً عن الدعوة، فسارع الوزير أبو محمد اليازورى إلى تأييد على بن محمد الصليحى فى إقامة دعوة سياسية للفاطميين هناك[2].

وفى سبيل ذلك فقد عمل الفاطميون على إحكام سيطرتهم على الشاطئين الأفريقى والعربى للبحر الأحمر وكذلك على المنفذ الجنوبى المؤدى إلى الهند، فمن الناحية الأفريقية طور الفاطميون ميناء عيذاب ليصبح مركزاً للتجارة الشرقية، وحل محل ميناء القصير القديم وأصبح منافساً للبصرة والأبلة، ومن الناحية العربية وطدوا علاقاتهم بشرفاء مكة، ووجهوا أنظارهم إلى اليمن القاعدة الفاطمية الأولى[3].

ولم تذكر المصادر والوثائق شيئاً عن النشاط التجارى أو التعامل المالى أو التعاون الاقتصادى بين مصر واليمن فى عهد الصليحيين، فكل ما ركزت عليه السجلات والمصادر اليمنية والمصرية هو اهتمام الفاطميين بنشر دعوتهم فى اليمن والمناطق التابعة لها فى الهند وعمان[4].

ولكن يذكر د. عباس همدانى أن من ضمن أهداف سفارة القاضى لمك إلى مصر هى مسألة تقرير تفاصيل انتشار تجارة المرور المتزايدة بين مصر والهند من خلال اليمن، لتعزيز الدعوة الفاطمية فى الهند بإرسال دعاة جدد إلى الكَجرات، الأمر الذى حدث سنة 460هـ بعد عودة القاضى لمك إلى اليمن مباشرة[5].

---

(1) محمد عبد الحى محمد شعبان: الدولة العباسية والفاطميون (750. 1055م/ 132. 448هـ)، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1981، ص240،241.

(2) أيمن فؤاد السيد: الدولة الفاطمية فى مصر (تفسير جديد)، ص129.

(3) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية فى اليمن، ص108.

(4) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، ص230،231.

(5) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود: المرجع نفسه، ص370.

وقد استفادت اليمن كثيراً من اهتمام الفاطميين بالتجارة الشرقية وخاصة قرب نهاية خلافتهم فى القرن السادس الهجرى، فأصبحت زبيد والشحر وعدن مراكز لتجارة العبور القادمة من الشرق الأقصى والهند إلى مصر والبحر المتوسط، وأصبحت عدن أعظم مستودع لبضائع الشرق الأقصى، وتوفرت بها حركة نقدية هائلة[1].

فاستفادة بلاد اليمن من تحول طريق التجارة إلى الجنوب واضح ومحسوس، فقد وجدت الخلافة الفاطمية أن هذه البلاد يجب العناية بها عناية تامة لتكون -بالإضافة لغرض الدعوة- قاعدة تجارية تقع على هذا الطريق -كما اهتمت كذلك بأمر الهند لنفس الغرض- وقد استفادت الدولة الصليحية من تحول طريق التجارة إلى الجنوب، فتبع هذا التحول جباية المكوس من السلع التى تمر ببلادهم أو الاستيلاء على بعضها للاستهلاك المحلى، بالإضافة إلى ما يستفيده الأهالى من شحن هذه البضائع وتفريغها[2].

وقد أدت علاقة اليمن التجارية القوية مع الهند إلى نشر الدعوة الطيبية الإسماعيلية فى الهند، وقد هاجر من اليمن إلى الهند منذ أوائل القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى أكثر من مائة وخمسين ألفاً من المستعلية، ويسمون هناك " البهرة"[3].

ويتبين مما ذكرته المصادر العربية أن السفن كانت تنقل البضائع من عدن عبر البحر الأحمر إلى الساحل الغربى على الشاطئ المصرى حيث يوجد ميناء عيذاب، وكان هذا الميناء ملتقى ومحط لتجارة الكارمية، وكانوا يفضلون الرسو به بسبب سهولة الدخول فيه والخروج منه، كذلك كانوا يرسون فى ميناء القصير بسبب قربه من مدينة قوص التى تنقل إليها السلع بواسطة الجمال، واحتلت مدينة قوص المرتبة التالية فى الأهمية بعد القاهرة فى العهد الفاطمى ذلك لأنها بفضل تجارة الشرق أصبحت أهم مراكز مصر التجارية فى ذلك العهد، ومن قوص كانت السلع تنقل عبر النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط بواسطة السفن التى يمتلكها الكارمية[4].

---

(1) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية فى اليمن، ص109.

(2) حسن سليمان محمود: الصليحيون فى اليمن، ص250.

(3) أحمد عبد القادر الشاذلى: حركات الغلو والتطرف فى الإسلام، الدار المصرية للكتاب،1987، ص73.

(4) عطية أحمد محمود القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية (656هـ)، رسالة دكتوراة من كلية الآداب جامعة القاهرة قسم التاريخ الإسلامى، 1973، ص91.

وترجع إلى هذه الفترة بدايات التجارة الكارمية، والتى كانت عدن وعيذاب وقوص والفسطاط من أكبر مراكزها، فكان للفاطميين أسطولاً بعيذاب يتلقى به الكارم خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا يتعرضون للمراكب بجزائر البحرر الأحمر فيحميهم منهم الأسطول الذى كان يتولى أمره والى قوص. [1] وقد كانت تجارة الكارم تأتى من مصر إلى عدن ومنها إلى غربى الهند والعكس. [2] وقد عملت الحكومة الفاطمية على حماية تجارة الكارم فى البحر الأحمر، وفى بعض الأحيان كانت تعهد إلى عدد من التجار القيام بهذه الحماية لغيرهم من التجار، وبرغم ذلك كانت الشكوى مستمرة من خطر متجرمة البحر الأحمر[3]، مما يدل على اهتمام وعناية الدولة الفاطمية بالتجارة الكارمية.

وإلى جانب تدعيم الفاطميون لطريقهم التجارى عبر البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية وحتى ساحل الهند الغربى فإنهم وجهوا عناية كبيرة لخلق نواة لنشر النفوذ الفاطمى على طول الطرق البرية التى بدأ حكام العراق فى استخدامها. وهذا لا يعنى أن الدولة الفاطمية ارتبطت مباشرة بالتجارة أو أن الدعوة نفسها كانت تنظيماً تجارياً، إلا أن العلاقة بين الدعوة والتجارة بدت واضحة تماماً فى الدعوة الفاطمية فى الهند[4].

ولتحقيق مخططهم شجع الفاطميون أعداداً كبيرة من تجار المغرب وخاصة من أبناء كتامة على الهجرة إلى مصر للاستفادة من خبرتهم فى التجارة، ودفعوا بهم إلى تجارة الهند، وقد جاءت إلى مصر فى سنة 400هـ أعداداً كبيرة منهم، وقد ذكرت وثائق الجنيزة أسماء كثيرة لهذه العائلات المغربية التى كانت تعمل فى تجارة الهند، وقد ذكر آشتور وجوايتين أنه اشترك فى تجارة الكارم تجار يهود ومسلمون من أصل مغربى، وشاهد على ذلك وجود أسماء كثيرة لعائلات من أصل مغربى كانت تعمل فى تجارة الهند، وكذلك ما أشارت إليه هذه الوثائق من

---

[1] ايمن فؤاد السيد: العرب وطريق الهند حتى أواسط القرن السادس، ص79، 80.

[2] أبى مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج2، ص138.

[3] عطية أحمد محمود القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية،، ص90.

[4] أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية فى اليمن، ص109.

أن موانئ البحر الأحمر والجزيرة العربية والهند كانت تموج بأعداد كبيرة من التجار المغاربة الذين قدموا من أقاليم المغرب ومدنه مثل برقة وجبل نفوسة وطرابلس والقيروان والمهدية وتلمسان وفاس وجرية ودرعا[1]، وقد ساعد هذا النشاط لتجار الشمال الأفريقى الفاطميين كقوة نبعت أصلاً من شمال أفريقيا فى تحقيق إستراتيجيتهم الشرقية واستفادوا من ثراء الشمال الأفريقى ابتداءً من القرن الرابع الهجرى وتوسعه فى تجارة الهند والشرق الأقصى، وهكذا فقد استغل الفاطميون فى اتجاههم شرقاً الدعائم الاجتماعية والاقتصادية لموطنهم الأصلى فى شمال أفريقيا، ويرى جوايتين أن السياسة الدينية لم تكن وحدها هى التى قوت التجارة الدولية للفاطميين بل ساعدهم ضغط اقتصاد دولتهم النامى الذى مكن للدعاية الفاطمية أن تنتشر شرقاً[2]، فلم تكن التجارة وسيلة للتستر لنشر الدعوة فقط، بل أيضاً وسيلة للإمداد الاقتصادى للدعوة الفاطمية الخارجية.

واستفادت الدولة الفاطمية من تجارة الكارم فى نشر الدعوة الإسماعيلية، فقد خدمت التجارة فى البحر الحمر والمحيط الهندى الدعوة الإسماعيلية، وأدت إلى انتشارها فى بلاد اليمن والهند وخاصة فى عهد الخليفة المستنصر، ففى عهد هذا الخليفة قام التجار الكارمية بمجهود كبير فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الهند، حتى أن أهالى هذه البلاد لم يكونوا يفرقون بين الدعاة الإسماعيلية والتجار المصريين، وكانوا يطلقون على الإسماعيلي منهم اسم " بوهرا" وهى كلمة تعنى " تجار البهار[3]" فى لغة أهل هذه البلاد، و"البَهار" هو الأقحوان الأصفر عند بعض الناس، وهو نبات له ساق رخصة، وورقه شبيه بورق الرازيانج، وزهرة أصفر، شبيه بعيون البقر، وكان يستخدم فى علاج أمراض كثيرة[4].

وبذلك فقد منحت التجارة الفاطمية الجديدة مع الهند الدعوة الفاطمية فى اليمن والهند حياة جديدة، ونجحت فى منافسة طريق الخليج الفارسى المسيطرة عليه الخلافة العباسية فى

---

(1) عطية أحمد محمود القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر ...، ص91.

(2) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص110.

(3) عطية أحمد محمود القوصى: المرجع نفسه، ص91، 92.

(4) فاطمة محجوب: الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، ج7، ص552.

مقابل تطوير الفاطميين للطريق القديم طريق البحر الأحمر، الذى يمر بعيذاب إلى عدن حيث كانت تبحر السفن التجارية إلى الموانئ المتعددة على الساحل الغربى للهند، وقد كانت "كمباى" واحدة من أهم موانئ الهند التى تربطها مع اليمن روابط تجارية قريبة، وبذلك فقد كانت الدعوة الفاطمية فى اليمن وكَجرات فى عهد المستنصر يرتبط بالسياسة والمصالح التجارية الفاطمية الجديدة المتطورة، وقد كان فى ذلك فائدة لليمن التى كانت قاعدة آمنة فى طريق البحر الحمر إلى الهند(1).

وقد استمرت العلاقات طيبة بين اليمن ومصر حتى وفاة الإمام الآمر بالله، واستيلاء ابن عمه عبد المجيد الحافظ على الحكم، مما دفع ابنه الإمام الطيب إلى الدخول فى الستر خوفاً على حياته، وذلك حسب الرواية الإسماعيلية الطيبية. فما كان من السيدة الحرة إلا أن أعلنت ولائها للإمام المستور الطيب، قاطعة بذلك كل علاقتها مع مصر الفاطمية التى كانت قد ضعفت إلى حد لم تعد تشكل فيه خطراً على حكمها، فانتشرت بذلك الدعوة الطيبية فى اليمن والهند والسند، بينما انحصرت الدعوة المجيدية فى مصر وفى بعض أنحاء اليمن، فقد أعلن الزريعيون فى عدن وسلاطين بنى حاتم الهمدانيين فى صنعاء ولاءهم لعبد المجيد(2)، فقد ذكر الداعى عماد الدين إدريس دخول السلطان سبأ بن أبى السعود الزريعى صاحب عدن فى الدعوة الحافظية(3)، وقد جمع بين الدعوة والملك، وخلفه ولده محمد بن سبأ جامعاً أيضاً بين الدعوة والملك(4).

وعمل الزريعيون على نشر الدعوة الحافظية فى اليمن وخاصة بعد وفاة الملكة الحرة أروى وعجز خلفائها عن المحافظة على ما تحت أيديهم من البلاد. كما طمع الحافظ فى السيطرة على الدعوة الإسماعيلية خارج اليمن وخاصة فى الهند، حتى يتمكن من تجارة الهند الغنية، فأرسل إلى محمد بن سبأ تقليداً منه ببلاد اليمن والحجاز وعمان، ونعته بالمعظم(5).

---

(1) Daftary: The Ismailism their History and Doctrine,p.211.

(2) برهانبورى: منتزع الأخبار، ص27.

(3) عماد الدين إدريس: نزهة الإفكار، ج1، ص31.

(4) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن، ص115.

(5) نصارى فهمى غزالى: العلاقات المصرية اليمنية، ص44. يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى تاريخ القطر اليمانى، ج1، ص298:297.

ويبدو أن الدعوة الحافظية قد لاقت بعض الرواج فى عهدهم فى الهند، فيذكر ابن أبى مخرمة أن "قرامطة السند" كانوا يؤدون الخراج لبنى زريع ومنهم للخلفاء الفاطميين[1].

وباستثناء محاولة الحافظ نشر دعوته بين الزريعيين حكام عدن فلم تقم أى محاولة أخرى من قبل حكام مصر فى أواخر العصر الفاطمى لمد نفوذ الفاطميين خارج الحدود المصرية، فقد حكم الخلفاء الأربعة الأواخر فى القاهرة كأسرة حاكمة مصرية محلية بلا سلطة أو نفوذ[2].

ونجح استخدام الدولة الفاطمية التجارة لنشر الدعوة الإسماعيلية فى السواحل الغربية للهند، ومما يدل على تواجد التجار الذين يدينون بالمذهب الشيعى فى موانئ الهند ما ذكره ابن بطوطة عند وصوله مدينة قَنْدهار -وهى مدينة كبيرة للهندوس على خور البحر وهى خاضعة للحكم الإسلامى- وحاكمها هندوسى ولكنه يحتفى بالتجار المسلمين، واستقبل ابن بطوطة من عنده جماعة من كبار المسلمين "بهره" ومنهم الناخوذة إبراهيم الذى له ستة مراكب، مشحونة بالزاد والرجال الأشداء والأسلحة لمواجهة قراصنة البحر، فقد كان فى المركب "الجاكر" التى ركبها ابن بطوطة وحدها خمسون رامياً وخمسون من المقاتلة الحبشة الذين تهابهم القراصنة[3]، مما يدل على عزة البهرة فى هذه المدينة وسيطرتهم على التجارة بها.

كما ذكر ابن بطوطة أن بمدينة "كولم"، "وهى من أحسن بلاد المليبار" جماعة كبيرة من التجار المسلمين، وكبيرهم "علاء الدين الأوجى" من أهل "آوة" من بلاد العراق، وهو "رافضى" ومعه جماعة من أصحابه على مذهبه، وهم يظهرون مذهبهم، وسلطان المدينة كافر ولكنه يعظم المسلمين[4].

ونجح التجار الإسماعيلية فى نشر الإسلام فى موانئ الهند، ودخل فى الإسلام كثير من الهندوس على أيديهم، ومن هؤلاء من سافر لطلب العلوم الإسلامية أو بغرض التجارة أو

---

(1) أبى محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد بن أبى مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج1، ط2، القاهرة، 1991م، ص47.

(2) أيمن فؤاد السيد: الدولة الفاطمية، ص189.

(3) ابن بطوطة: تحفة النظار، ج2، ص104، 105.

(4) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص114، 115.

قدموا عبيداً وخدماً إلى العالم الإسلامى وخاصة عدن. ومن هؤلاء "أبو السرور إقبال بن عبد الله الهندى" وقد كان عبد خادم يقال له "إقبال الدورى"، وقد كان من أغنياء عدن، وكان عاقلاً ديناً دارساً للقراآت السبع، قرأ على الحرازى بعدن، وكان حسن السيرة. وبالثغر مسجد يقال له "مسجد الدورى" ولا يعلم إذا كان منسوباً إليه لإقامته به أو لبنائه إياه ، توفى سنة 722هـ[1].

ومنهم "الفقيه سليمان بن إبراهيم بن حيدر الغُورى الهندى" دخل عدن قاصداً الحج، فقرأ عليه القاضى "ابن كيِّن" كتاب "الأنموذج" للزمخشرى، ثم حج ورجع إلى عدن وأقام بها منتظراً سفر الهنود، وفى أثناء إقامته قرأ عليه القاضى "ابن كيِّن" أيضاً "المفصَّل" للزمخشرى و"الكافية" لابن الحاجب، و"تلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبديع[2]".

وكانت الهند أيضاً ملجأ للفارين أو المنفيين بعيداً عن اليمن، فقد كان الشيخ "أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن جديد بن على بن محمد بن جديد بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن جعفر الصادق" معروف عند أهل اليمن "بالشريف أبى جديد"، وأصله من حضرموت من السادة آل باعلوى بيت صلاح وعبادة على طريق التصوف، وقد كان فقيهاً صالحاً ناسكاً مجتهداً عارفاً بالحديث، ورعاً زاهداً، قدم إلى عدن فأدرك بها القاضى إبراهيم بن أحمد القُريظى فأخذ عنه "المستصفى"، وكان معه أخوه عبد الملك، وخرجا إلى قرية "الوَجِيز"، من أعمال تعزَ "لزيارة الشيخ مُدافع بن أحمد" الذى رحب بهما وزوجهما ابنتيه، وأقام أبى جديد بالجبلة، وانتفع الناس بعلمه وأخذ عنه كثيرين. ولما قبض المسعود بن الكامل على الشيخ مدافع قبض على صهره الفقيه أبى جديد، واعتقلهما بحصن تعز سنة 617هـ/1220م، وفى سنة 618هـ/1221م أنزلا إلى عدن وسيرا إلى الهند، فوصلا إلى الديبل، وأقاما بها شهرين وثلاثة أيام، ثم خرجا منها فى رمضان سنة 618هـ، فدخلا ظفار حيث توفى الشيخ مدافع، ورجع أبو جديد إلى اليمن وأقام بها فترة يدرس، وتوفى سنة 620هـ/1223م بمكة[3].

---

(1) أبى مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج2، ص23، 24.

(2) أبى مخرمة: المصدر نفسه، ج2، ص94.

(3) أبى مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج2، ص157، 158.

ومن اليمنيين الذين قدموا الهند "محمد بن على بن سفيان"، تفقه تفقهاً جيداً، ثم سافر إلى الهند، حيث تزوج هناك وأقام بها ينشر علمه إلى أن توفى سنة 616هـ/1219م[1].

وسارت الدعوة النزارية فى آلموت على مثال الدولة الفاطمية فى اتخاذ التجارة وسيلة لنشر الدعوة وخاصة فى الهند، وقد كانت التجارة بذلك ستاراً جيداً للدعاة، كما أنها تمد الدعوة بالإمداد المالى اللازم لاستمرارها، كما أدى اهتمامهم بالتجارة إلى انتعاش التجارة فى قلاع النزارية، وفى عهد الداعى محمد بن كيابزرك. الذى فوضه الإمام الحسن بن محمد بن على بن نزار تولى سنة 552هـ/1157م، توفى سنة 557هـ/1161م، وجه اهتمامه بأمر إمامه بالتجارة، وأوعز إلى اتباعه أن يتعاطوا التجارة وزودهم بالأموال اللازمة ليتمكنوا عن طريق التجارة أن ينشروا دعوتهم سراً، مما ساعد على نشر الدعوة النزارية فى الهند[2].

---

[1] أبى مخرمة: المصدر نفسه، ج2، ص224.

[2] مصطفى غالب: أعيان الإسماعيلية، ص245.